التراجع الديمغرافي خلال الفترة الكولونيالية بالجزائر

(المنطقة الممتدة من سهول مينا والضفة اليسرى لشلف)

فيما بين 1863-1900

د. ليلى، بلقاسم

المركز الجامعي غليزان

الملخص :

التقهقر الديمغرافي خلال الفترة الكولونيالية بالجزائر (المنطقة الممتدة من سهول مينا والضفة اليسرى لشلف) فيما بين 1863-1900:

تتناول الدراسة موضوع عوامل التقهقر الديمغرافي الذي أصاب المجتمع الجزائري خلال المرحلة الكولونيالية واختارنا كعينة المنطقة الممتدة ما بين سهول مينا والضفة اليسرى لشلف ما بين 1863-1900.

المرحلة التي عرفت تغيرات جذرية في البنية الاقتصادية والاجتماعية لأجل تنفيذ المشروع الكولونيالي الفرنسي في الجزائر مأدى إلى خلخلة الخريطة الديمغرافية في المنطقة المدروسة نتيجة عوامل في مقدمتها تطبيق التشريعات العقارية التي استهدفت الأرض وتفتيت القبائل وتقلص المساحات الزراعية والرعوية، الأمر الذي أتبعه المقاومات الشعبية التي جاءت كرد على السياسة الكولونيالية والتوسع الاستعماري في المنطقة أعقبها الغرامات الحربية والنفي والابعاد في مقدمتها انتفاضة فليتا 1864 إلى جانب انتشار المجاعات التي عصفت بالمجتمع المحلي بالمنطقة فيما بين 1867-1868 صاحبها الكوارث الطبيعية كالجفاف وغزو الجراد 1866 ما أثر على المحاصيل الفلاحية وانتشار الفاقات والامراض والاوبئة في مقدمتها الكوليرا والطاعون ..

ما زاد من الوضعية الكارثية المديونية والقروض الربوية كنتيجة لاختراق النظام الرأسمالي للسوق التقليدي الجزائري الامر الذي عجل بزوال قبائل بأكملها ومسحها من الخريطة الديمغرافية جغرافيا واسميا.

Résumé en Français :

المنارة للاستشارات

www.manaraa.com

La régression démographique pendant la période coloniale en Algérie (la zone s'étendant des plaines de la Mina et de la rive gauche du Chlef) entre 1863-1900:

L'étude traite les facteurs de la régression démographique qui ont affectés la société algérienne pendant la période coloniale, nous avons choisi l'échantillon de la zone situé entre les plaine de la Mina et la Rive gauche de Chélif entre 1863-1900 , Cette période a été marquée par des échanges radicaux dans les structures économico-sociales, afin de mettre en œuvre le projet colonial français en Algérie, ce qui a conduit à la désintégration de la carte démographique de la zone étudiée, en raison de plusieurs facteurs, notamment l'application des législations foncières qui ciblait la terre, la fragmentation des tribus et la contraction des zones agricoles et pastorales. Cela a entraîné une forte résistance populaire en réponse à la politique de l'expansion coloniale dans la région. Une politique traduite en tantôt en amendes tantôt par l'exil. Tout cela a conduit au soulèvement du Flittas 1864, ainsi que la propagation de la famine qui a affectée la population locale dans la région entre 1867-1868, ce qui s'est accompagné par des catastrophes naturelles telles que la sécheresse et l'invasion de criquets 1866, qui ont affectés négativement sur les cultures agricoles et propagation des maladies et des épidémies en particulier le Choléra et la peste…

Ce qui a aggravé la situation, c'est la contraction des dettes et des emprunts usuraires en raison de la pénétration de système capitaliste au marché traditionnel algérien, accélérant la disparition des tribus entières

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

et rayant ces derniers de la carte démographique géographiquement et nominalement.

Summary in English :

The demographic regression during the colonial period in Algeria (the area extending from the plains of Mina and the left bank of Chlef) between 1863-1900:

The study deals with the factors of the demographic regression that affected the Algerian society during the colonial period, we chose the sample of the zone situated between the plain of La Mina and the Left bank of Chélif between 1863-1900, This period was marked by radical exchanges in economic and social structures, in order to implement the French colonial project in Algeria, which led to the disintegration of the demographic map of the study area, due to several factors, notably the enforcement of land laws that targeted land, fragmentation of tribes and contraction of agricultural and pastoral areas. This has resulted in strong popular resistance in response to the policy of colonial expansion in the region. A policy translated into fines sometimes by exile. All this led to the Flittas uprising of 1864, as well as the spread of famine that affected the local population in the region between 1867-1868, which was accompanied by natural disasters such as drought and the invasion of locusts 1866, which negatively affected agricultural crops and spreading diseases and epidemics especially cholera and plague ...

What aggravated the situation is the contraction of debts and usurious borrowing due to the penetration of the capitalist system into the

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

traditional Algerian market, accelerating the disappearance of whole tribes and lining them out of the demographic map geographically and nominally.

مست السياسة الكولونيالية_ الفرنسية التركيبة الاجتماعية والاقتصادية للفرد الجزائري جراء أساليب التفقير والقهر والمصادرات، فأفرزت نظاما يقصي الأهلي تضاعفت على حسابه ميزانية الميتروبول بما فيها جيوب الكولون، كنتيجة لتحطيم الإنسان الجزائري وإحلال الأوروبي مكانه باستنزاف خيرات البلاد الجوفية والسطحية باقتلاع الجزائري من أرضه ونسقه الاجتماعي وكانت منطقتي مينا والضفة اليسرى لشلف كعينة لما وقع في الجزائر خلال المرحلة الكولونالية الممتدة من 1863 إلى 1900 المرحلة التي تميزت بتطبيقات القوانين العقارية واستهداف الأرض والقبيلة.

فما هي عوامل التراجع الديمغرافي بالمنطقة؟ وماهي انعكاسات ذلك على التركيبة السكانية والاقتصادية؟

صرح لاموريسيار قائلا : " على المنتصر تطبيق قانون الغالب، فالعرب الذين حُطِّموا عسكريا يجب أن يُحَطَموا اقتصاديا، وهم مجبرين طوعا أو كرها على ترك أراضيهم للمستوطنين."[1]

أدت السياسة الكولونيالية الفرنسية إلى إحداث خلل في الخريطة الديمغرافية في المنطقة المدروسة كعينة لما حصل في الجزائر، ممّا خلق حالة من لا استقرار الاجتماعي والسكاني، في مقدمته سياسة الإبادة والتهجير والتقتيل التي تخللت الانتفاضات الشعبية، فخلال انتفاضة فليتا 1864 والتي مست بلاد بني وراغ وبني مسلم وكل المنطقة، مما اضطر السلطة الاستعمارية إلى إخمادها وفق سياسة الأرض المحروقة وهذا ما ورد على لسان لاباسي(Lapasset) : " من جوان 1864 كان التالي: 02 جوان تمَّ حرق أراضي أولاد صابر وأولاد ايعيش وأولاد خويدم، في 03 جوان ضربت كل قبائل عمي موسى وفي 04 جوان اخترق منحدر رهيو من طرف طابور لاباسي وروز وأحرقت قرى مكناسة."[2] وعقب نهاية الانتفاضة صودرت آلالاف الهكتارات وتمَّ نفي 300 ثائر إلى جزيرة كورتي وكورسيكا وكاليدونيا الجديدة، زادها حجم الضرائب والغرامات المالية المفروضة على الجزائريين، بلغت في قسمة

[1] -Djerbal, Youcef : La France en Algérie , Bilans et controverses ,Vol 01, Ed, O.P.U, Alger, 1995,P :82.

[2] - Goldzeigeur , Annie, Rey : Le royaume arabe, la politique Algérienne de Napoléon III 1861-1870, P :301.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مستغانم خلال أشهر أوت 1865 و جانفي 1866 و سبتمبر 1866 ما قيمته 1.227.696 فرنك و 80 سنتيم[1] من مجموع الضرائب التي ارتفعت خلال شهر أكتوبر 1866 إلى 6.482.544 فرنك و 85 سنتيم كغرامات حرب[2]، وهذا ما رصدناه من خلال الوثائق الأرشيفية إضافة إلى استمرار ضريبتي الزكاة و العشور في أوساط القبائل المتضررة لتصنف المنطقة ضمن الأقاليم الأكثر بؤسا. المبالغ التي حوّلت لدعم المشاريع الاستيطانية بما يخدم الكولون منها الهياكل القاعدية في عمي موسى وغليزان وزمورة يلل ذات بعد عسكري دفاعي بلغت قيمتها 2.458 فرنك و42 سنتيم[3].

كما قادت السياسة الكولونيالية إلى ارتفاع معدل الوفيات في أوساط قبائل المنطقة الأمر الذي أدى إلى تهديد الوضع الديمغرافي، كنتيجة لعمليات إفقار الفرد الجزائري، ففي مواطن فليتا والظهرة والونشريس: " تراوح التناقص ما بين 30 إلى 60 % في مجال مينا وأولاد بوعفان 65.7 % وأولاد بوعلي والونشريس وحول غليزان 62.4 % وفي بني زنطيس على سفوح الظهرة 58.5 % وبأولاد يايا بجبال زمورة لم يبق سنة 1869 إلاّ 791 فردا من مجمل 2.460 فردا الذين شملهم إحصاء سنة 1866 ما يمثل خسارة بـ 67.8%"[4]. مما أدى إلى زوال قبائل بهدف كسر المقاومة ضد السلطة الاستعمارية، بل إلى افراغ المناطق من الساكنة جراء عمليات الإبادة والحرق والعقوبات الجماعية فكنتيجة لانتفاضة 1864 غادرت 341 خيمة مواطن فليتا تاركة أراضيها ولجأت إلى قسمة معسكر فرارا من أعمال القمع[5].

والجدول التالي يوضح حالة التقهقر السُّكاني في بعض القبائل ومنها قبيلة أولاد العباس 1867-1897:

السنوات	القبيلة	الدواوير الأهلية	السكان (نسمة)	المساحة الإقليمية	ملاحظات
1867	أولاد العباس	-قرواو	6.462	17.018هك	

[1] -A.N.O.M, 2H52, Insurrection 1864-1865, Amendes, Oran, 08 Octobre 1866.

[2] -Ibid, recouvrement du complément des contributions de guerre frappés en Algerie ; lettre à le maréchal de France, Paris 23 Octobre 1866

[3] -A.N.O.M :2H52, Insurrection 1864-1865 ; Amendes, Relevés des dépenses concernant les travaux exécutés dans la Sub de Mostaganem pendant le derniere insurrection, Mostaganem le 19 Janvier 1865.

[4] - Goldzeigeur Annie, Rey :Op, P :453.

[5] -A.N.O.M, 2N75 , Ouled Bel Haia, Sénatus- consulte, Note sur la tribu, 19 mars 1893.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

		-أهل قرين -واريزان			اقتطع 4.153 هك لخلق عين كرمان – وادرهيو دوار واريزان ألحق خلال هذه الفترة في جزء منه بلدية عين كرمان وجزء منه بالبلدية المختلطة سيدي أمحمد بن علي (Renault)
1897			5.333 نسمة	12.865 هك	

Source :Lecq, M, H, Commission d'étude des améliorations à apporter dans la situation agricole de la Vallée du Cheliff, Rapport à Monsieur le gouverneur général de l'Algerie, Alger, Imprimerie orientale, 1898, PP :122-123.

ما يلاحظ من خلال الجدول حالة التناقص الديمغرافي في العرش في مدة 30 سنة بمعدل 1.119 فرد وهذا كنتيجة لسياسة التفقير بسبب سلب العقار و اقتطاعهِ لصالح إنشاء المراكز الاستيطانية و توسيعها، إضافة إلى حجم الضرائب الباهظة التي بلغت في العرش ما قيمته 29.163 فرنك سنة 1867 في حين بلغت سنة 1897 م ما قيمته 34.840 فرنك كان يوجه أغلبها لدعم المشاريع الاستيطانية لصالح الكولون.

وبمأنَّ جلَّ القبائل الممتدة ما بين منخفض مينا والضفة اليسرى لشلف ما بين 1866-1870، خضعت لتطبيقات القرار المشيخي (Sénatus-Consult) 1863م، الذي أدّى إلى تحطيم التركيبة الاجتماعية للمجتمع المحلي بالمنطقة لتصنف ضمن المناطق الأكثر تضرراً حيث سجلت 1.383 ضحية في الفترة الاستعمارية بالخصوص في المناطق النائية الجبلية ما بين وادي مينا ووادرهيو بالخصوص التي شملتها انتفاضة 1864."

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

في حين انعكست السياسة الكولونيالية بالجزائر بالإيجاب على المستوطنين الأوروبيين وبالسلب على العنصر المحلي الجزائري، أمام تقلص نصيب الفرد الجزائري من الحبوب والمساحات الزراعية على حساب توسع زراعة الكروم والمحاصيل الصناعية الموجهة لخدمة الاقتصاد الكولونيالي الرأسمالي. فبينما ظلت مساحات الجزائريين تعرف انكماشاً بفعل القوانين العقارية الجائرة ظلت مساحات المستوطنين الأوروبيين تعرف توسعا، ضف إلى ذلك الدعم المالي المصحوب لهذه الفئة الدخيلة التي ازدادت ثراء. إذ انتهجت السياسة الكولونيالية عمليات الإفقار والإهمال اتجاه السكان الجزائريينَ بداية بالتشريعات العقارية وبالتحديد قانون فارني(Warnier) 1873 م الذي أباح التسويق في الأراضي الجزائرية ما شجع المعاملات الربوية وفرض الضرائب الثقيلة العينية والنقدية والرهنية، التي أنهكت جيوب الجزائريين وحولتهم إلى خماسين وبروليتاريا كادحة في المدن الهامشية كحي الزنوج أو القرابة* بغليزان، لتظهر فئة الفلاحين من غير أراضٍ وفلاح بدون عمل مسخر كأجير لخدمة الكولون والأرستقراطية والبرجوازية الجزائرية وهذا ما نقرأه في تقرير سبتمبر 1866 :" الأَهالي ومن أجل البحث عن وسائل معيشية أُخرى ولتخفيف مأساتهم جراء المحاصيل الضعيفة لسنة 1866، ومن بينها تلك القبائل المجاورة لمراكزنا الاستيطانية فالبعض شكلوا أيادي مساعدة للمزارعينَ الأُوروبيينَ والآخرونَ ذهبوا ليطالبوا بالعمل في ورشات السكة الحديدية... السكان العرب خلقوا موارد ذات قيمة وأصبحوا في نفس الوقت بالنسبة للكولون كما للمقاولينَ وسيلة بالغة المساعدة للأشغال الاستيطانية الكبرىٰ[1]." ومع ذلك استمر تحصيل ضريبة العشور إلى مصلحة الضرائب (Service de contribution) – كما اوضحنا أعلاه– دون مراعاة الظروف الاقتصادية والاجتماعية والطبيعية للجزائريين. إلى الكوارث الطبيعية على رأسها الجفاف سنة 1865م صاحبه الجراد 1866م.

* حي القرابة :أنشأ بغليزان سنة 1860 خصص مجانا للأهالي النازحين، الذين أقاموا بنايات مجانية في أملاك الدولة بعيدا عن شعاع الأحياء الأوروبية مسخرة لخدمة الاستيطان بما فيها الأوروبي وقد تضاعف عدد سكانه فيما بين 1866-1869 كنتيجة المآسي الانسانية التي ضربت المجتمع الجزائري.

المصدر : الارشيف المحلي لبلدية غليزان، .Village Nègre.

[1] -A.N.O.M, 32J1, Rapport du bureau des affaires concernant les faits accomplis pendant le mois de septembre 1866.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

إنَّ الفقـر الذي أصاب العنصر المحلي بالمنطقة المدروسة كعينة عن الجزائر يرجع إلى الأسباب التالية:

- الابتلاع المتزايد للأراضي الجزائريين الفلاحية الخصبة والرعوية مما أثر على الأوضاع الاقتصادية بالخصوص الزراعية وعلى الظروف المعيشية للجزائريين جراء افراغ المطامير من مخزونها، التي كان يحتاطُ بها الجزائري في أوقات الفاقة والكوارث الطبيعية والتغيرات المناخية. وفي المقابل احتياطي المستوطنين من الحبوب لم ينقص منه شيء وبالرغم من ذلك لم يخطر ببال أحد الرسميينَ أو من الخواصْ أن قدم يد المساعدة للجائعين[1]. في ظل سياسة فرنسة الأراضي وجمع الجزائريينَ وحصرهم (Cantonnement) في مناطق محددة لا تتناسب وعددهم ولا احتياجاتهم مما أدى الى تقلص مواردهم الزراعية والرعوية.
- الفـــاقات والمجاعات التي ضربت المجتمع المحلي بالمنطقة و التي ترسخت في ذاكرة الجزائري بالتأريخ لها بأعوام هذه الكوارث بعام الجوع وعام الشر (1867-1868) وعام الجراد (1866) الذي ترتب عنه إصابات بالتسمم في المياه مما ساعد على انتشار الأوبئة والأمراض كالتيفوس والكوليرا لم تسلم منه حتى الحيوانات، وهذا ما نقرأُه في تقرير ماي 1866م " جفاف طويل والسبب الأوَّل لهذه الحالة غزو الجراد، قبائل آغاليك الظهرة الأَكثر عناء من هذه الكارثة، خسرت الحبوب التي تكبدوها لقد رأوا أشجارهم الجميلة من التين قد دمرتْ تماماً كارثة كبيرة ضربت مواردهم في كل المناطق، إنَّ الاستياء عميقْ[2]". وخلال شهر جوان لنفس السنة (1866) ورد التالي: " الأهالي مستاءون يقضون جلَّ وقتهم في الفتك بالجراد الذي تسبب في الكثير من الضـرر، هذه السنة ستكون أكثر سوءا، الحبوب في تناقص محاصيل السنة الأخيرة الآمال فيها ضعيفة وكذلكَ محاصيل أشجار التين لمعظم قبائل القسمة ... المأساة بدأت وتمّ استشعارها في عدة نقاط مما سيشكلُ تهديدا حقيقيا[3]."

من الأمثلة على ذلك قبيلة أولاد رافع باقليم زمـورة تذكر التقارير أنَّها عانت كثيرا من أزمة 1866-1868 بحيث فقدت سُدس سكانها جراء المجاعات والأوبئة إذ نقص عدد السكان إلى 384 فرد إلى جانب خسائر في الثروة الحيوانية بشكل عظيم، أصبحت القبيلة لا تشمل إلاَّ 11 حصان و 6 بغال و 12 حمار و 65 بغل و 1.027 خروف و 574 من الماعز، وقدرت الضريبة خلال 10 سنوات الأخيرة بـ 5.191 فرنك و 68 سنتيم

[1]- الأشرف، مصطفى: الأُمة والمجتمع، تر: حنيفي بن عيسى، الجزائر، م.و.ك،1983، ص:15.

[2] -A.N.O.M, 32J1, Rapport du bureau des affaires concernant les faits accomplis pendant le mois de mai 1866.

[3] -A.N.O.M, ibid, mois juin 1866.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

نفس المتوسط بلغ في السنوات الثلاث الأخيرة وُجد منخفضا بـ 769 فرنك و 80 سنتيم. ومن الأَمثلة على ذلك أيضا قبيلة أولاد راشد كما باقي قبائل فليتا عانت بقوة من أزمة 1867م ، فخلال سنة واحدة و مقارنة بالوضعية الإحصائية لسنتي 1867-1868 يظهر الانخفاض جليا بحيث فقدى ثلث سكانها[1]. ومن أكثر القبائل بؤسا قبيلة أولاد بلحي فمن خلال الأرقام التي تركها المكتب العربي فقدت من 1867 م إلى 1868 م حوالي 1.176 فرد و253 حصان و1.271 من الثيران و13.705 من الخرفان والماعز[2] ما يعني هلاك ثرواتها وإمكانياتها المادية والبشرية، القبيلة التي كان طرفا مهما في انتفاضة سيدي لرزق بلحاج (فليتا) 1864م.

- انعكاسات الانتفاضات و المقاومات جراء افراغ الساكنة من الأراضي كنتيجة للقمع و الغرامات الحربية التي انهكت الأهالي فقبيلة فليتـــا فرضت عليها الغرامات التي انهكتها بالكامل جراء انتفاضة 1864م وفي شهر أوت 1865م، حوالي 99 سجين أُرسل الى مستغانم و 100 سجين آخر وضعوا في زمورة، وفي شهر نوفمبر 1865م 341 خيمة من فليتا فرّت من البلاد، ولجأ أغلبها إلى قسمة معسكر يذكر التقرير أنّ فليتا جراء ذلك لم يكن لها الوقت الكاف لإعادة ترميم ما أصابها من جديد بالخصوص ما لحقها من مجاعة 1867م التي أغرقتهم مرة أخرى في البؤس[3].
- انتشار الأمراض والأوبئة التي أهلكت المجتمع المحلي ومنها داء الكوليرا والطاعون وغيرها من الأَمراض الفتاكة. يذكر تقرير ديسمبر 1863م: " أنّ وباء حمى متقطع ومعقد الملاريا الدماغية ((L'accès pernicieux تمّ ظهوره بتاريخ 08 ديسمبر 1863 بقبائل مديونة و مازونة... وأدى إلى وفيات كبيرة، وبتاريخ 16 ديسمبر سجلناَ في قبيلتين 58 حالة وفاة خلال غزو المرض، السيد فيدال (Vidal) موظف من الدرجة الأولى هذا الطبيب حاليا متواجد بمازونة مع الأَدوية وفي هذا المكان ساح في القبائل المتضررة من هذا الوباء وعمل ما في وسعهِ لإنقاذ الأهالي[4]."كما يشير تقرير أوت 1865م: " أنَّ الوضعية الصحية لا ترقى إلى المستوى المطلوب فالعديد من القبائل انتشرت فيها الحمى بالخصوص تلك المجاورة للمستنقعات[5]". ويضيف تقرير أكتوبر

[1] -A.N.O.M, 2N88, Ouled Rached , application de Sénatus Consulte, Mostaganem, 05 février 1870.

[2] -A.N.O.M. 2N75, Ouled Bel Haia , C.M, Zemmorah, Notice historique sur la tribu, 25 février 1893.

[3] -A.N.O.M, Ibid.

[4] -Ibid, Rapport mois décembre 1863.

[5] -Ibid, Rapport mois d'aout 1865.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

1865م :" أنّ الوضعية الصِحيَّة تركت نُقصا، الحمى المتواترة متواصلة في الحاق الضرر فقد مست العديد من أجزاء مستغانم، نسب الوفيات كبيرة جداً في هذه الظروف، الإدارة تدخلت للمساعدة في حدود إمكانياتهاَ للأهالي الطبيب المكلف بمصلحة الصحة بالمكتب العربي حرصَ على صحة القبائل التي تضررت، بتوزيع حبوب الكانين Des pilules de quinine التي تمت بشكل واسع وبالشكل الممكن، وبفضل هذه الرعاية وهذه النجدات للعديد من الأَهالي تمّ إنقاذهم من الوباء الذي أصبح في طريقه إلى الزوال".[1]

- المديونية والقروض الربوية إذ يشير تقرير شهر أكتوبر 1866م " أنّ موسم الحرث قد بدأ مع أواخر 15 من شهر أكتوبر وقد وجد الأهالي أنفسهم في مأزق الحرثْ الذي شمل نطاقا ضيقاً، فالأهالي ليس لهم حبوب البذر والحصول عليها يستوجب عليهم تغطيتهاَ بالقروض الربوية بشروط مدمرة ففضل الكثير منهم عدم الحرث هروبا من هذه الأصناف من الديون[2]."
- عامل الجفاف الذي استمر لفترة طويلة والذي حال حسب تقرير شهر ديسمبر 1866 دون توسع عملية الحرث بالمنطقة مما آثار مخاوف الأهالي إذ لم تتهـاطل الأَمطار سنة 1867م، ستكون سنة فاجعة كما كانت سنة 1866م [3]." وهذا ما انعكس على الانتاج الفلاحي وأدَّى إلى تناقص في انتاج الحبوب بكافة أنواعها وقد أشار تقرير جويلية 1866م "أن القمح والشعير يجلب إلى الأسواق بكميات قليلة جدا، ما أدى إلى ارتفاع ثمنهِ خارج نسب الموارْد[4]." وتشير الوثائق الأرشيفية أنّ سوء الظروف أدى إلى تدهور الأوضاع السياسية بالمنطقة جراء دمَار الحملة الفلاحية فقبائل المنطقة لا يمكنها الاعتماد على إنتاج مصادر أخرى كالمواشي مما تسبب في انتشار الأَمراض بسبب الجفاف الذي عصف بالبلاد[5]".

ورد في مراسلة بتاريخ 07 جوان 1877م تخص ملحقة زمـورة أنّ انتاج الحبوب رديء وأنَّ البذر تمّ في وقت مبكر وبسبب الجفاف لم ينتج شيئا ... ففي قبائل أولاد سويد والعناترة وفي الدواوير الأهلية (أولاد زيد قبيلة أولاد يحي) وبن عودة واد حامول (لمحال) لا يوجد على الإطلاق شيء لا انتاج ولا رعي... وفي قبائل الحرارثة وبني درقن وأولاد سيدي أحمد بن محمد وأولاد بلحي وأولاد سيدي لزرق وأولاد سيدي يحي بن محمد وأولاد سيدي يحي وأولاد

[1] -Ibid, Rapport mois d'octobre 1865.
[2] -Ibid, Rapport mois d'octobre 1866.
[3] -Ibid, mois de Décembre 1866.
[4] -Ibid , mois de Juillet 1866.
[5] -Ibid, rapport mois d'aout 1866.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

رافع، المحصول ناقص وفي عدد من الدواوير المردودية ستكون بنصف المحصول وفي القبائل الأُخرى من جيد إلى سيءٍ[1].

مما جعل المحصول مفقودا في 05 قبائل أو دواوير أهلية وفي القبائل الثمانية الأُخرى نصف المحصول، إذ أثبتت المعلومات التي قدمها الزعماء الأهالي أن 10 قبائل بالملحقة لا يمكنها التزود بالحبوب في السنوات القادمة، فعلى على سبيل المثال أشار التقرير أنَّ قبيلة أولاد راشد لا تحوز الامدادات الخاصة الكافية للبذر لبلوغ نهاية الشتاء. مما اضطر أهالي فليتا إلى بيع بعض مواشيهم لكي يتمكنوا من دفع ضريبة الزكاة التي يجب دفعها في الشهر الجاري من جوان 1877م، الأمر الذي دفع الزعماء الأهالي ووفق تعليمات الإدارة الكولونيالية إلى مساعدة الجزائريين المتضررين، وبأنّ الماشية لا قيمة لها في الأَسواق وأنَّه من الأفضل الحفاظ عليها لأكبر وقت ممكن. وأشار التقرير إلى أنّ الأهالي رءوا أنّه إذا جاءت أمطار الخريف في وقتها بوفرة فإن الأَزمة سيتم تجاوزها ولا تترك أثرا، في حين إذا حدث العكس وسقطت الأمطار متأخرة وبكميات قليلة فإن الوضعية تصبح أكثر انتقادا[2]. ما يعني أنّ الأهالي الجزائريين كانوا يعتمدون في عمليات السقي على ما تذره السماء من أمطار على غرار الأوروبي الذي دعم بشبكة ضخمة من الموارد المائية من خلال السدود ومدها بقنوات المياه التي تمّ تشييدها تحت ضغط شكاوي الكولون لري ملكياتهم الزراعية الواسعة على حساب تحويل المجاري المائية بما يخدم زراعتهم وهذا ما نقرأه في شكوى المعمر قورناي (Gourany) بغليزان في رسالة موجهة إلى الحاكم العام بتاريخ 19-08-1862 حول نقص المياه بمحيط مينا من حيث التوزيع، والذي تعود أسبابه حسب الرسالة إلى إفراط الأهالي في استخدام المياه في الجزء الأعلى من واد مينا، وإلى استغلالهِ من طرف آهالي المنطقة المجاورة لمزرعتهِ ممّا أدى إلى تناقصهِ وتوقفهِ في الجزء الأسفل[3].

علما أنَّ الادارة الكولونيالية أخضعت في هذه السنة قبائل ملحقة زمورة إلى ضريبة الزكاة بحيث تم إحصاء 2.007 من الثيران و17.477 من الخرفان و 2.709 من الماعز في حين احتوت مطامير التخزين للجماعة ما قيمته 7.230 هيكتولتير و 80 لتر. وأشار التقرير أن الوضعية الأخيرة تدل على أنَّ هذا الرقم ليس متنوع وأنه ستقدم دفعات للقبائل التي تفتقر للبذور الحرث وقروض بضمانات تقدم للفلاحين لسد حاجياتهم.

[1] -A.N.OM, 14H37, Famine 1868 , affaires arabes, division d'Oran, annexe de Zemmorah , N° : 527, Sujet des populations indigènes dans les tribus, Zemmorah le 07 juin 1877.

[2] Ibid.

[3] -D.A.W.O : 3R29 ? Services des eaux, Relizane, 1850-1870, Mostaganem, 19-08-1862, N° :5812.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أمَّا في دائرة عمي موسى فقد تقرر أنَّ احتياطي الامدادات (approvisionnement) للأفراد متوفر بجدية لدى الخيم الجيدة فقط (les bonnes tentes) في حين منعدم بالنسبة للخماسين والفلاحين، وأشار أيضا أنَّ ظروفهم ستكون لسنة أو سنتان على الأقل أكثر صعوبة وعدم الاستقرار خلال السنوات الست والثمانية الأخيرة من عام 1877م وأمام السعر المرتفع للحبوب والمغري أشار إلى أنَّ ذلكَ من شأنهِ أن يدفع بعض الفلاحين الأغنياء إلى بيعِ جزء من احتياطاتهم [1]. في حين أبدى تقرير حول عين كرمان (وادرهيو) بتاريخ 27 أفريل 1878م أنّ وضعية الآهالي غير مطمئنة على نقيض ما أعلنه الاداري، ذلك أنَّ المحاصيل مُنعدمة في 03 دواوير جزئية، يعادل ¼ من المحصول في 07 أخرى، و ½ في 21 دوار و جيدة في 07 دواوير، الأمر الذي دفع الادارة الكولونيالية إلى العمل على اتخاذ إجراءات احتياطية فيما يتعلق بالدواوير الثلاث أين المحصول بالكامل منعدم وفي 07 دواوير الأهلية حيث لديها ربع المحصول[2].

- الضرائب الثقيلة والمجحفة في حق الجزائريين الأهالي والجدول التالي يبين قيمة الضرائب التي فرضت على قبائل المنطقة:

القبيلة	1867	1897
أولاد العباس	29.163 فرنك	34.840 فرنك
أولاد أحمد	11.950 فرنك	17.030 فرنك
عكرمة الشراقة	22.904 فرنك	29.824 فرنك
المحال	14.404 فرنك	26.268 فرنك
أولاد سلامة	9.217 فرنك	7.584 فرنك
أولاد خويدم	30.214 فرنك	19.049 فرنك
اولاد سيدي بوعبد الله	15.783 فرنك	13.465 فرنك

[1] -Ibid, Famine 1868, situation générale des populations indigènes, division d'Oran cercle d'Ammi Moussa , affaires arabes , N° : 137Ammi Moussa le 04 juin 1877

[2] -Ibid, Famine 1868, renseignements comptes sur la situation matérielle des indigènes, bureau affaires indigènes, N° : 2585 , Oran : le 27 avril 1878.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Source- Lecq. M.H, Commission d'Etude des améliorations à apporter dans la Situation Agricole de la vallée du Chéliff, Rapport à Monsieur le Gouverneur Général de l'Algérie, Alger, Imprimerie Orientale, 1898.pp, 122,123.

فمن خلال قراءة الجدول الاحصائي يتبين لنا ارتفاع قيمة الضرائب ما بين سنتي 1867 و 1897 ويدخل هذا ضمن سياسة إفراغ جيوب، بهدف تدمير البنى الاجتماعية والاقتصادية وإزاحة السكان بكل الأساليب عن السهول والمناطق الزراعية فالإضافة إلى ذلك كان للوجهاء نصيب منها من القياد والآغاوات مقابل 10 بالمائة من الضرائب المحصل عليها، إلى جانب الاستفادة من أعمال السخرة والتويزة في أراضيهم ونقل منتجاتهم مما مكّن القيادات المحلية من تجميع ثروات نقدية كبيرة[1].

الجدول التالي يَعرض وَضعية المحاصيل في اقليم البلدية المختلطة وادرهيو (Inkermann) 24 أفريل 1878:

أسما الدواوير	اسماء المشاتي	وضعية المحصول
القيايبة Kiaiba	- القصارة. - العجاونية - العواشيش - أولاد سلطان - أولاد خنار	- منعدم نهائيا - نفسه - نفسه - ¼ من المحصول - نفسه
أولاد عدي Ouled Addi	- المعايزية - السوايمية - قدايشية - الشراطنية - زارة - مخاطرية	- ½ من المحصول - نفسه - نفسه - محصول جيد - محصول سيء - ½ من المحصول

[1]-بن أشنهو، عبد اللطيف: تكون التخلف في الجزائر، محاولة لدراسة حدود التنمية الرأسمالية بين عامي 1830-1962، تر، نخبة من الآساتذة،ش.ن.ت، الجزائر، 1979،ص:71.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

	- مفاتحية	- نفسه
الجرارة Djerara	- الطراميل - حساين الجرارة - ماجن بن طاهر - أولاد عابد - العوايشية - أولاد شنة	- ½ من المحصول - نفسه - نفسه - نفسه - نفسه - نفسه
الحمادنة Hamadena	- مشتة خدام سيدي علي - حساين البرايجية - السوالم - الشكايرية - أولاد بن والي	- ¼ من المحصول - ½ من المحصول منعدم في الجبال - ¾ من المحصول - محصول جيد في السهول وسيء في الجبال. - ½ من المحصول.
عبد القوي Abd El Goui	- أولاد المداح - الزناينية - أولاد بن عودة - مجايدية - دوار أولاد عابد - الرتايمية - العواينية - عبد الدايم - أولاد بوجلة	- ¼ من المحصول - نفسه - محصول جيد. - محصول جيد - محصول جيد - ½ من المحصول - نفسه - نفسه - ¼ من المحصول.
مرجة قرقر	- السلاطنة - سيدي عابد ولد الحاج احمد - الخنايق	- ½ من المحصول - نفسه - نفسه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

Merjat El Gargar.	- الغرايب - جديات - دراهمية	- ¼ من المحصول - محصول جيد - محصول جيد.

Source : A.N.O.M, 14H37, Famine 1868, état présentant la situation des récoltes à la date du 24 avril 1878,dans le territoire de la commune mixte d'Inkermann, l'administrateur signé, Guérin.

- تراجع الأنشطة الاقتصادية التقليدية كالحرف والنشاط التجاري في بعض الحواضر

إذ يسجل الجيلالي صاري:" تزايد النمو السريع للهجرة سنة 1896م في منطقة مازونة كنتيجة لتراجع الحرف والنزوح إلى الأحياء الهامشية[1]". وهو العرش الذي اقتطعت منه 2.700 هكـ لتأسيس المركز الاستيطاني سيدي أمحمد بن علي (Renault)، وخلال تطبيق قانون فأربي 1873م تسبب ذلك في عزل المدينة اقتصاديا جراء محاصرتها بالمراكز الاستيطانية وإبعادها عن شبكة المواصلات فمنعت التجارة والحرف رغم إرادة تجارها ومثابرة حرفييها في ظل الانحطاط القاتل[2]. مما تسبب في الهجرة الداخلية إلى المناطق الأخرى إلى سهل الشلف وغليزان ومستغانم[3].

- اختراق النظام الاقتصادي الرأسمالي للسوق للاقتصادي التقليدي الجزائري، إذ كان النظام السائد قبل الوجود الاستعماري قائم على تخزين الحبوب في المطامير لمواجهة التغييرات المناخية والاضطرابات السياسية التي قد تهدد وجود الفرد والقبيلة، مما يضمن الاكتفاء الذاتي غير أن افراغ مطامير بني وراغ وأولاد صابر والقبائل المحيطة بالمطمر (Les Silos) نتيجة المضاربات الربوية والدخول في الاقتصاد النقدي داخل القبائل مما أجبرهم على بيع احتياطاتهم التقليدية مما يتسبب في حالة المحصول السيء وضعاً متزعزعا عند شراء ما ينقصهم من الحبوب ونلاحظ هنا يذكر بن آشنهو أنّ أية ظاهرة ستكون ذات اتساع كبير في سنوات المحصول السيئ[4]. الأمر الذي أدى بالفلاح الجزائري إلى عجزه عن مواكبة التغيرات في ظل تحول الأرض إلى مجرد سلعة تجارية:" فقد قاد الفلاح الجزائري إلى مواجهة كل الضغوطات من دون سند خارجي،

[1] – Sari, Djilali : les villes précoloniales en Algérie occidentales, Kalaa, Mazouna, Nédroma ; Alger, S.N.E.D, 1966, P : 147.

[2] – Belhamissi, Moulay : Histoire de Mazouna, Alger, S.N.E.D, 1981, P.P :84, 58.

[3] –Ibid, P :84.

[4]–بن أشنهو، عبد اللطيف: نفسه، ص: 70.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويختفي الاحتياطي الجماعي من الحبوب ويخضع الفلاح صاحب القطعة المجزأة إلى التغييرات المناخية وبالتالي يتعرض للربا وانتزاع الملكية منه[1].

و كنتيجة لسياسة التفقير (La politique d'appauvrissement) التي أدت إلى التقهقر الديمغرافي وتغير الخريطة السكانية وزوال قبائل بأكملها، وكنتيجة للفاقات ومعارك البطون الجائعة بالمنطقة يذكر تقرير ديسمبر 1866م : " أنّه بسبب المأساة الكبيرة التي اجتاحت البلاد، انتشرت السرقات بشكل كبير ومن ذلك أنّه في ليلة 04 إلى 08 ديسمبر 1866 حدثت سرقات شملت 140 مقياس شعير لصاحبها الجيلالي قدور من قبيلة عكرمة الغرابة تمّ إفراغها كلها[2]." كما توالت عمليات السطو على المطامير المملوكة للقياد والكولون على حد سواء لإشباع البطون ففي جلسة 17 ديسمبر 1866 أعلنت اللجنة التأديبية (La commission disciplinaire) أنّ بن عودة بن دالي من العناترة ومحمد بن عمار والحاج ولد محمد بن عمار من أولاد يحي متهمين بسرقة مطامير الشعير، وقد تمت معاقبتهم بـ 06 أشهر بالنسبة للإثنان الأولين والثالث بـ 08 أشهر بالسجن العقابي ببوخنافيس (بسيدي بلعباس) وتم فرض 60 فرنك كتعويض للأضرار لأحمد ولد سيدي محمد بن بركات[3]. ومن خلال قراءة الجلسات التأديبية لقسمة مستغانم التي أعدت للجزائريين أنَّ أغلب القضايا متعلقة خلال هذه الفترة بالسرقات التي خصت الحبوب والمواشي ففي جلسة بتاريخ 07 إلى 17 ديسمبر 1866م أعلنت عن الأحكام التالية:

-*صيهوب ولد الحاج قدور بن سيدي علي وعابد ولد الغول وعابد ولد سيدي غلام الله من أولاد سيدي بوعبد الله اعترفوا بذنب سرقة الشعير وعوقبوا بسجن 06 أشهر بالمؤسسة العقابية ببوخنافيس مع دفع غرامة مالية بـ 60 فرنك كأضرار لسي طاهر ولد حاج عابد من نفس القبيلة.

-*المليود بوعزة وقدور بن خيرة وعبد الله بن غالي من عكرمة الغرابة اعترفوا بالإجماع بسرقة اثنان من الأبقار عوقبوا الاثنان الأوّلان بسنة سجن والأخير بـ 03 أشهر سجن في المؤسسة العقابية ببوخنافيس ودفع غرامة مالية قدرت بـ 100 فرنك كأضرار لسي أحمد بن عبدة من نفس القبيلة.

[1]- نفسه، ص: 64.

[2] -Ibid, rapport mois de décembre 1866.

[3] -Ibid, rapport mois de décembre1866.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

-*أحمد بلعربي من أولاد إسمر وبوعبد الله بلعربي اعترفوا بالإجماع على سرقة 10 خرفان عوقبوا بـ 06 أشهر من السجن بالمؤسسة العقابية ببوخنافيس، كما اقترح التعويض المالي بـ 80 فرنك تعويضا عن الأضرار لمحمد بلحاج من أولاد إسمر[1].

الخاتمة:

إنّ الوقائع التاريخية المستقاة من وثائق وكتابات الفرنسيين أنفسهم أشارت إلى الإنجازات التي أقيمت هنا وهناك واصفين إياها بالفعل الحضاري، غير أنّ الواقع يقول بنقيض ذلك فلقد شهد المجتمع المحلي بالمنطقة المدروسة جراء التواجد الهمجي للقوات الاستعمارية منذ البداية تغيرات سلبية جذرية، أثرت على البينة الاجتماعية والاقتصادية نتيجة سياسة الأرض المحروقة وسلب العقار بصيغ مختلفة، ناهيك عن حصيلة الضحايا التي ما فتئت ترتفع وسط السكان العزل بالخصوص في مثلث الظهرة والونشريس وفليتا، فلم تسلم قبائل المنطقة التي طبقت عليها كل أشكال القمع والقهر بما في ذلك القوانين الزجرية لتحقيق الأهداف الكولونيالية ، وطبيعي جدا ردة فعل القبائل القوية بالمقاومة الفردية و الجماعية كلما سنحت الفرص بذلك خلال التوغل الاستعماري، مما تسبب في إعاقة المشاريع الكولونيالية التوسعية في المنطقة خلال فترات متقطعة، ولما أدركت السلطات الاستعمارية أنّ القبائل هي ذخيرة الانتفاضات في منطقتي مينا وسهل الشلف وضعت استراتيجية استهدفت تضييق الخناق عليها وفق منطق التخويف لأجل التطويع وإفلاسهم اقتصاديا وماليا، لإضعافهم على المدى البعيد حتى يتسنى لها القضاء على الانتفاضات وتنفيذ المشاريع الاستيطانية، الأهداف التي تكررت في رسائل القادة العسكريين والمدنيين خلال كل الحكومات الفرنسية المتعاقبة طالبين من قادتهم تجسيدها وهو ما يجعلنا نجزم بالمسؤولية التاريخية عن تلك الممارسات البربرية الملقاة على عاتق فرنسا ككيان سياسي وكدولة.

[1] -Ibid, Rapport mois de décembre, 24 décembre 1866, le capitaine 8 eme de ligne au chef du bureau arabe .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com